

غرناطة التاريخ والحضارة

مقدمة عن التاريخ الإسلامي في غرناطة

■ عصام السعيد

اسم غرناطة مشتق من كلمة رومانية بمعنى الرمان، ويقال إنه: أُطلق عليها هذا الاسم نظراً لطبيعتها الخضراء الغنيّة والحدائق والبساتين التي تحيط بها.

أُقيمت مملكة غرناطة على رقعة من الأرض تضمّ اليوم محافظات غرناطة وملقا وألميريا الإسبانية، تقع بمحاذاة جبال سييرا نيفادا أو جبال الثلج بالإسبانية في جنوب إسبانيا.

ويشعر سكان هذه المحافظات الإسبان اليوم بفخرٍ كبير؛ لوجود آثار الممالك الإسلامية الأندلسية في بلادهم اليوم، ويكنون لها ولمن أقامها الاحترام والتبجيل.

وتُعدّ غرناطة ذات موقع جغرافي متميز؛ حيث تحيط بها الجنائن والبساتين، ويخترقها نهر حدرّة، وبها مرتفعان كانا بمثابة حماية لها، وتُعدّ إمارة غرناطة إسلامية النشأة؛ حيث لم تكن قبل عهد الإسلام سوى مجرد قرية صغيرة، وأخذت في النمو حتى أصبحت في - وقت سقوط الخلافة الإسلامية - مدينة كبيرة.

■ أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة السلطان قابوس.



تأسست مملكة غرناطة بعد انهيار دولة المرابطين على يد أبي عبد الله بن يوسف بن نصر الأحمر، الذي أصبح أول ملك لغرناطة تحت اسم محمد الأول، الذي استمر حكمه 41 عاماً بين عامي 629 و671 للهجرة.

تعدُّ مملكةُ غرناطة الأطولُ عمراً بين ممالك المسلمين في الأندلس، واستطاعت أن تحقق نجاحات باهرة توازي نجاحات ممالك الأندلس التي سبقتها إن لم تتفوق عليها. استطاع حكام غرناطة أن يحافظوا على السلام في مملكتهم في وقتٍ حرجٍ؟ حيث كانت ممالك الأوروبيين تسعى فيه بشكلٍ دائمٍ لإسقاط غرناطة، وذلك بعد أن شجعهم سقوط قرطبة؛ لإنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس.

أطلق على غرناطة لقب «الأندلس الصغرى»؛ حيث اجتمعت تحت ظلالتها بقايا دولة الأندلس المنهارة، حيث هاجر إليها عدد كبير من المسلمين بعد سقوط إماراتهم في يد المسيحيين، وظلَّت إمارة غرناطة - بفضل ذكاء حكامها - نحو مائتين وخمسين سنةً.

الحمراء في غرناطة

تعدُّ متحفاً للفن الأندلسي؛ لما تتمتع به من نفائس فريدة من نماذج العمارة الإسلامية.

يرجع الفضل في إنشائها إلى ملوك بني نصر، حيث عمل كلُّ منهم على إضافة مبنى أو برج أو بركة صناعية، أو زُود صحن أحد القصور بنافورة جذابة، وتعدُّ مدينة الحمراء - بحق - مدينةً ملكية؛ حيث تتخذ شكل الحصن الذي يقع في موقع مرتفع على مساحة خمسة وثلاثين فدّاناً، وبالرغم من التعديلات التي تعرضت لها بعد سقوطها على يد الملكين الكاثوليكين؛ فإن القصور ما زالت تحتفظ بتخطيطها الأصلي. يشغل الهضبة التي شُيدت عليها قصور الحمراء عددٌ من الوحدات المعمارية، وتنوعت المباني الدالة على التقدّم الحضاري، منها المباني الدينية والعسكرية والخدمية، كما كان في الأندلس بشكلٍ عامٍّ في غرناطة بشكلٍ خاصٍ من ذلك على سبيل المثال:

المساجد: وهي ذات مكانة خاصة في حياة المسلمين، حيث لم تكن مقرأً للعبادة فقط؛ بل لعبت عدداً من الأدوار؛ فكانت جامعاً ومدرسةً ومقرأً للاجتماعات. وقد اهتم حُكَّام غرناطة كثيراً ببناء المساجد؛ حيث وجد بها حوالى مائتي مسجد، من أشهرها مسجد الحمراء، الذي بُني في غرناطة في وسط الهضبة جنوبي الروضة، بأمرٍ من السلطان محمد الثالث، وقد بُني على أبداع طراز عربي إسلامي، وقد وصفه أحد المؤرخين بأن ثرياته من الفضة، ومحرابه به أحجار الياقوت، ومنبره من العاج والأبنوس.

أطلق على غرناطة لقب «الأندلس الصغرى»؛ حيث اجتمعت تحت ظلالتها بقايا دولة الأندلس المنهارة، التي هاجر إليها عدد كبير من المسلمين بعد سقوط إماراتهم في يد المسيحيين، وظلت إمارة غرناطة - بفضل ذكاء حكامها - نجو مائتين وخمسين سنة.

ولما احتلّ القوط غرناطة تركوا المسجد على حاله فترة، ثم هُدم في عام 1576م في عهد فيليب الثاني، وأقيمت مكانه كنيسة سانتا ماريّا ذات البرج الشاهق الذي يعلو مباني الحمراء، ولم يبقَ من مخلفات هذا المسجد سوى مصباح برونزي بديع الشكل، يحفظ الآن في متحف مدريد محمد بن يوسف، كما أسهم ميسورو الحال في بناء عددٍ من المساجد الخاصة بإمارة غرناطة.

المآذن: وقد كانت من أشهر المعالم

المميزة لمساجد غرناطة، وقد بقيت مئذنتان من العصر الغرناطي إحداها ألحقت بالكنيسة الأبرشية، وتمّ تحويل الأخرى إلى جرس كنيسة.

القصور: أبداع الملوك والسلاطين في بنائها لتكون شاهداً على رخاء وعظمة حُكْمهم، ومن أهم قصورها على الإطلاق قصر الحمراء.

وقد صمم هذا القصر ليكون قصر الخلافة، ومسجداً جامعاً كبيراً، كان في أوج ازدهار المملكة منبع العلماء، وملتقى الدارسين من بلاد الأندلس وبلاد المغرب، وتخرّج فيه علماء كبار منهم العلامة الأندلسي الغرناطي الشاطبي إبراهيم بن موسى.



وقد كان هذا القصر مجرد حصن صغير يسمى الحمراء، لجأ إليه العرب الهاربون أثناء الفتن وأعمال الشغب التي ظهرت خلال حكم الأمير عبد الله الأموي، وعُرف القصر بهذا الاسم في نهاية القرن الثالث الهجري. وكان هذا الحصن قد شُيّد عند طرف هضبة السبيكة - أُطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت تلمع بلون ذهبي عند سقوط أشعة الشمس عليها - وعلى أيام بني الأحمر (بني نصر) امتدّت مباني الحمراء فوق الهضبة كلها.

وعندما دخل محمد بن الأحمر (من بني نصر) غرناطة أقام في قسبة بني زييري، التي كانت في مدينة غرناطة نفسها؛ لكنه لم يدخر وسعاً في إنشاء قصر الحمراء عقب دخوله بفترة زمنية قياسية تعدّ أسرع وقت مستطاع في ذلك الزمن، وجعله مقاماً له ومركزاً لحاضرة مملكته الجديدة.

ويمكن تقسيم مباني قصر الحمراء إلى مجموعة أولى تتجسد في دور قمارش (السفراء)، يسبقها بهُو المشوار وساحة صغيرة، وقد قام السلطان يوسف الأول بتشييد هذا البناء. أما المجموعة الثانية فهي قصر السباع، الذي تتوسطه ساحة السباع وقد شيده السلطان محمد الخامس، وهناك بعض الحَمَامَات القديمة، ومسجد يصل بين المجموعتين المذكورتين آنفاً واللتين شُيّدتا في القرن الرابع عشر الميلادي.

المشور: وقد تمّ إنشاؤه في عام 1365م، وهو المكان الذي خصص في القصر للموظفين الذين يعاونون الملك في إدارة شؤون الدولة، لقد تغيّرت سمات (المشور) الرئيسة، ولم يبقَ منها سوى بعض الزخارف الجصية وفسيفسائه الرخامية، وفي شعار بني الأحمر بعض ما تبقى من النقوش العربية، وأهم ما تبقى من المشور قاعة كبرى، وفيها نقشٌ باسم السلطان محمد الغني بالله يتضمن بعض أبيات الشعر.

يوجد خلف قاعة المشور مصلى يحتفظ إلى اليوم بمحاربه الرائع، تنصدره العبارة التالية: «أقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين»، وفي المشور توجد القاعة المذهبة، نسبة إلى الزخارف المذهبة المزدانة بها، وهناك ساحة، إلى جنوبها تقع سقيفة لها بابان، الأيسر يؤدي إلى قاعة

صغيرة تقود إلى ساحة الرياحين (ساحة السفراء)، والباب الأيمن يؤدي إلى المدخل الأساسي الأول للقصر، وبابي مفرق الباب ذي الدفتين طراز من الخشب نُقِشت عليه أبيات شعرية.

أما ساحة الرياحين أو (السفراء) فإنها من عجائب الحمراء، بل أعجب ما فيه جميعاً، حيث تتوسطها بركة مستطيلة الشكل، وأحواض تحفُّ بجوانبها أشجارُ الريحان، وقد بنى هذه الساحة محمد الخامس، وقد نُقِشت في زوايا ساحة الرياحين هذه العبارة: «النصر والتمكين والفتح المبين

لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين»، ونُقِشت أيضاً الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَلْتَصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، ونُقِشت على الأفريز الرخامي الأوسط للساحة قصيدة شعرية من اثني عشر بيتاً، ونُقِشت فوق الأبيات الشعرية وتحتها عبارة: «ولا غالب إلا الله» بشكلٍ مستمر، ويؤدي باب ساحة الرياحين الشمالي إلى بهوٍ صغيرٍ يسمى بهو البركة به قبلة زينت بنقوش قشبية، ويفضي بهو البركة، من الناحية الشمالية إلى أعظم أبهاء الحمراء، وهو بهو السفراء أو قمارش. إن أروع ما في بهو السفراء زخارف

عندما دخل محمد بن الأحمر (من بني نصر) غرناطة أقام في قصبة بني زيدي، التي كانت في مدينة غرناطة نفسها؛ لكنه لم يدخر وسعاً في إنشاء قصر الحمراء عقب دخوله بفترة زمنية قياسية تعدُّ أسرع وقتٍ مستطاع في ذلك الزمن.

قمته التي ما زالت تحتفظ بنقوشها الأصلية، ويؤدي بهو البركة، من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلي يعرف بفناء السرور؛ حيث زُرعت فيه بعضُ أشجار السرور وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية العربية.

يُعدُّ حمام الحمراء - قرب بهو البركة - من أروع الحمامات؛ العربية ذلك لما يشكِّله من قيمةٍ فنيةٍ عالية، وقاعة الاستراحة في الحمام يُطلَق عليها قاعة السريرين؛ حيث يستريح فيها الشخص بعد الحمام، ويوجد بها سريران، وأمام السريرين نافورة مياه، وتُعدُّ هذه الردهة استراحة للسلطان قبل أن يمضي إلى الغرفة الدافئة، ويحتمل أن تكون مخلعاً للثياب، «وقد بقيت بعض



القاعات بنقوشها وأصباغها إلى الآن، وتطلُّ على القاعة الساخنة شرفات كانت تستخدم كمجلس لفريقي موسيقي، يعزف الألحان بينما الأمير والأميرات يسترخون في هدوء دون أن ينغص عليهم أحد هذا الهدوء».

«والقسم الثاني من حمامات الحمراء هو (الغرفة الدافئة) والتي تلي (الاستراحة) مباشرة، ويوجد فيها حوضٌ كبير تتصل به أنابيب، وجميعها تتصل من الجهة الأخرى بحجرات الوقود، وذلك بطريقة فنية ذات تقنية عالية ومحكمة، فضلاً عن وجود أنابيب على شكل قناة مستقلة تنثر العطر في جو الحمام».

أما القسم الثالث من حمام الحمراء فهو (الحجرة الساخنة)، وفيها حوضٌ كبيرٌ تعلوه كوة في الجدار، وهي منبع للماء الساخن والبارد.

وفي استعراضنا لأجنحة وأقسام قصر الحمراء نصل الآن إلى قاعة الأختين، وتقع في شرقي فناء البركة، حيث نصل إليها من باب الفناء الشرقي من رواق معتم، ويقال: إنها سُميت كذلك لاحتواء أرضها على قطعتين متساويتين وفريدتين من الرخام، وتُنقشت تحت عبارة «لا غالب إلا الله» المتكررة بعض الأبيات الشعرية للوزير الشاعر ابن زمرك، ويحيط بقاعة الأختين عدة شرفات، وتؤدي قاعة الأختين من بابها الجنوبي إلى رائعة من روائع قصور الحمراء، وهو بهو السباع، والذي وقد قام بإنشائه السلطان محمد الغني بالله، الذي نرى اسمه منقوشاً في الكثير من المواضع، وهو من الآثار الباقية على حالها حتى الآن، يصل إليه من باب صغير بهو الرياحين، الذي كان المقر السياسي للدولة في غرناطة، وكانت تضافى عليه الناحية البروتوكولية؛ حيث تقام فيه مراسيم الاستقبال الرسمية في قاعة السفراء ببرج قمارش المطل على البركة المستطيلة المحاطة بشجر الرياحان، وحين نعبّر هذا الجناح يبرز أمامنا بهو السباع، وهو القصر الخاص بسكنى سلاطين بني نصر.

وفي منتصف الجانب الجنوبي من بهو الأسود يقابلنا مدخل قاعة بني السراج، تلك الأسرة التي كان لها دورٌ خطير في نهاية تاريخ غرناطة العربي

والإسلامي، وتعلو قاعة بني السراج - المستطيلة الشكل - قبة مضلعة وفي جوانبها كوات صغيرة، وقد نقشت في دائرة القبة الوسطى عبارة: «لا غالب إلا الله».

وتتوسط قاعة بني السراج بركةٌ وسطحها نافورة مياه، وهذا الحوض مستدير الشكل، ومصنوع من المرمر، ويقال: إن هذه البركة طافت بدماء أفراد بني السراج إبان الأحداث الدامية والفتنة الأهلية التي حدثت في غرناطة.

تتوسط قاعة بني السراج بركةٌ وسطحها نافورة مياه، وهذا الحوض مستدير الشكل، ومصنوع من المرمر، ويقال: إن هذه البركة طافت بدماء أفراد بني السراج إبان الأحداث الدامية والفتنة الأهلية التي حدثت في غرناطة.

أما قاعة الملوك فيبرز مدخلها من الناحية الشرقية لبهو السباع، وتُعرف أيضاً بقاعة العدل، ومدخلها عقد مثلث الجوانب، وبها ثلاثة عقود أو حنايا، وقد رسمت في سقف الحنية الوسطى منها صورة عشرة فرسان مسلمين وهم ملوك غرناطة العشرة قبل أبي عبد الله الصغير.

برج متزين الملكة، وقد انشئ هذا البرج في القرن السادس عشر بعد سقوط غرناطة، وهو بهو صغير منخفض السقف، رُسمت على جدرانها صور وزخارف من الفن المسيحي،

وتطلّ شرفة المتزين على مدينة غرناطة ومروجها، وتقع في خارج الحمراء خرائب «الروضة»، أو مدفن ملوك بني نصر، وهي واقعة في جنوب شرقي ساحة الأسود.

جنة العريف: بعد زيارة قاعات الحمراء نخرج إلى منتزه الحمراء، وفيه قصر شيد في أواخر القرن الثالث عشر، وزين على أيام السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة، ويقع هذا القصر في شمال شرقي الحمراء، والوصول إليه يتم من خلال طريق طويلة صاعدة تظللها الأشجار.

إن قصر جنة العريف يُعدُّ آية في فن الحدائق عند العرب لما يحتويه من تنوع في حدائقه، حيث نرى أشجار الحور والريحان والأزهار والورود من



كل صنف ولون، ووسط كل ذلك تقوم برك الماء والنوافير، وقد أُقيم فيما بعد - أي بعد نكسة غرناطة - بناءً فوق قصر جنة العريف، أمرت ببنائه إيزابيلا، ويغلب اليوم الخراب على الطابق الأعلى الدخيل، وقد نزع نوافذه، لكن الطابق السفلي - القصر العربي الأصيل - ما زال شامخاً وصامداً على الرغم من عوادي الزمن ومحاولات التشويه.

البرطل: وهو لفظ يُطلق على مجموعة من المباني بقصر الحمراء شرق قصر السباع، وهي تتكون من برج السيدات، يلاصق قاعة أمامها رواق، وأمام هذه المجموعة بركة ماء، ويلاصق البرج عدة منازل صغيرة من الناحية الغربية، وتوجد في المنزل الأول منها رسوم جدارية، تمثل مشاهد صيد ورفقاً عسكرية ونقوشاً وزخارف هندسية بديعة.

القصر الملكي: أنشأه محمد بن الأحمر ثاني سلاطين غرناطة والملقب «بالغالب بالله» في أواخر القرن السابع الهجري، وأضاف إلى بنائه السلطان أبو الوليد، وفي عهد يوسف بن أبي حجاج أضيفت معظم الأجنحة والأبهاء الملكية، بما تتميز به من مناظر الفخامة والروعة.

المباني الخاصة بالخدمات العامة ومنها:

القناطر: كان في غرناطة خمس قناطر، وهي (قنطرة ابن رشيد - قنطرة القاضي - قنطرة حمام جاش - القنطرة الجديدة - قنطرة العود) مما يعبر عن الاهتمام الكبير بالزراعة.

الأسوار: لأن مملكة غرناطة كانت تمثل المعقل الأخير من معقل المسلمين، فكان لا بدّ من الحفاظ عليها، فقام محمد بن الأحمر بإحكام أسوارها، وبنى على الأسوار أبراجاً حصينة عالية لحماية المدينة.

الأرباط: نظراً لتواصل نزوح المهاجرين إليها فقد تمّ بناء الأربطة بجوار أسوار المدينة حيث عملت على حماية نواة المدينة وأصبحت تشكّل حلقات مركزية تسببت في وجود تحصينات ثلاثية الأسوار تحيط بالمدينة.

الأبراج والأسوار: مكانة المدينة الكبيرة في نفوس المسلمين - كمعقل أخير لهم - جعلتهم يزيدون من تحصينها عن طريق الأسوار الكثيفة، التي يتخللها ألف وثلاثمائة برج منيع، ومنها برج الحراسة الذي أنشأه السلطان محمد بن الأحمر 645هـ ولا يزال قائماً بها.

وقد أنشأ السلطان أبو يوسف الحجاج برج قمارش الذي يعلو بهو قمارش أو بهو السفراء؛ وكذلك برج الأسيرة وتبين أبيات الشعر أهمية هذا البرج وحصانته، وبرج آخر في ناحية الشرق اسمه برج الأميرات، ومن الأبراج الباقية في غرناطة إلى الآن برج قمارش وبرج المتزين.

أنشأ السلطان أبو يوسف الحجاج برج قمارش الذي يعلو بهو قمارش أو بهو السفراء؛ وكذلك برج الأسيرة وتبين أبيات الشعر أهمية هذا البرج وحصانته، وبرج آخر في ناحية الشرق اسمه برج الأميرات.

وقام محمد الأول ومحمد الثاني بتشييد الأسوار الخارجية، وفي فترة حكم يوسف الأول (833 - 855هـ/1333 - 1354م) شُيّدت أبراج (قمارش) و(المطرقة) و(القنديل)، والأبواب الثلاثة الكبرى: باب الشريعة - باب الطباقي الثلاثة - باب السلاح، أما برج المتين فقد أتمه السلطان محمد الخامس.

إن ثلاثة من أبواب الحمراء تؤدي إلى الخارج، وهي أبواب:

الشريعة: وهو خالٍ من الأبراج، له عقد جميل ودعامة عالية، ذو الطباقي الثلاثة، والقمم المسننة. أما باب السلاح: فهو وحده الذي يصل الحمراء بمدينة غرناطة، إن لأبواب الحمراء نسباً معمارية ضخمة من كتل المبانى الحجرية، وتتضمن الدهاليز المقبأة ذات الانثناءات والتعرجات والالتواءات الكثيرة، والتي تتقاطع في بعض الأحيان، وتُعدُّ من أرقى نماذج الأبواب في العمارة العسكرية. أما الأبواب الأخرى فلا تختلف كثيراً عن معظم الأبواب الكبرى التي شيدها الموحدون والمرينيون في مراكش.



لقد أخذت الأسوار المحيطة بأعلى هضبة الحمراء شكلها النهائي في منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وقد شُيِّدت للدفاع عن قصور الحمراء؛ حيث بنيت قواعد المدافع خلال القرن الخامس عشر، وقد شُيِّدت تلك المصاطب - القواعد - عند أسفل البوابات الثلاث الكبرى.

الحصون والقلع: كان للحصون دورٌ مهم في الدفاع عن إمارة غرناطة، كان يتمُّ اختيار مواقع جغرافية مميزة لبنائها، وكانت مأهولة ومزودة بالجنود والسلاح والذخيرة وعلف للحيوان

البيمارستان: وهي كلمة فارسية الأصل، وتعني دار المرضى، وهي إحدى المؤسسات الخيرية التي أسسها الملوك والسلاطين لعلاج المرضى، ووجودها دليل على الرقيِّ والتحضُّر ومدى العناية بالصحة العامة وقد قام الملك محمد بن يوسف (755 - 760هـ) ببناء بيمارستان لعلاج المرضى، كما بنى محمد الخامس (767هـ) بيمارستان في جناح من بستان قصر الحمراء.

الحمامات العامة: اشتهر أهل الأندلس بعنايتهم الفائقة بالنظافة الشخصية والمظهر الخارجي، وكانت الحمامات العامة منتشرة في الأندلس منذ العصر اليوناني والروماني، وقد توارث أهل الأندلس العادات نفسها، ففي عهد بني الأحمر تم بناء المسجد الأعظم بالحمراء، وتمَّ بناء حمام أوقفه على المسجد وقد كانت الحمامات العامة والخاصة منتشرة في غرناطة والمدن المجاورة لها.

الحمامات السلطانية: عبارة عن عدّة حمامات رخامية، تتخللها أبهاء صغيرة، ما زالت أماكن الأحواض ظاهرة بها وأماكن المواسير والصنابير، وفي القرن الثامن الهجري كانت تُبنى في مداخل الحمامات صالات ذات زخارف غنية وتخطيط مربع، وحولها ممرات، ويوجد في بعض جوانبها مقاعد كبيرة ثابتة، ويوجد في أعلى الجزء الأوسط نوافذ صغيرة للتهوية والإضاءة، وفي قصر الحمراء يطلق عليها صالة الأسرة، حيث يستريح بها

المستحمون بعد انتهاء الحمام، ويوجد صالة مماثلة في قصر جار العريف بغرناطة، كما يوجد في شارع كاليه حمام الآن يرجع لعهد بني الأحمر.

الأسواق والقيسارات: تُعدُّ قيسارية غرناطة السوق الرئيس؛ حيث اهتم بها سلاطين بني الأحمر وعملوا على حمايتها من السرقة مسؤول لحمايتها ليلاً.

وفي مقابل الحي التجاري لمدينة غرناطة تقوم قسبة أخرى، رتبَّ وعدل بناؤها، وأضيفت إليه مبانٍ جديدة أخرى؛ لتغطي وتلبي حاجات بني نصر وتستوعبهم بعد تأسيس وإرساء دعائم ملكهم، وقد احتوت - إضافة إلى القصور الملكية - على المصالح والمؤسسات الحكومية والإدارية، ودار

ضرب السكة - المسكوكات النقدية - وثكنات الحرس ودواوين أخرى ومجالس كبار الموظفين، وكل ما يحتاج إليه الأتباع والحجَّاب والمراسلون، وما يحتاج إليه العامة من المصانع والحوانيت والحمامات والمسجد الكبير.

الفنادق: كانت غرناطة مقراً للتجارة، فكان بها شبكة طرق برية مميزة، تمَّ إنشاؤها في العصر الروماني، وبعضها تمَّ استكماله في العصر الإسلامي، فكان وجود أماكن لراحة التجار أمراً ضرورياً، وكانت فنادق مجهزة

بالغرف والحمامات والعجانات وغيرها، وقد اهتم المرابطون والموحدون وبنو الأحمر بهذه الفنادق، وتبقَّى منها فندق غرناطة الشهير، وهو عبارة عن بناءٍ عربي قديمٍ ذي باب ضخم.

وقد تمَّ إبرام الكثير من المعاهدات التجارية رعاية لمصالح التجار وحفاظاً على الرخاء الاقتصادي.

إيصال المياه إلى المدن: حيث عملت الحكومات الإسلامية على توفير المياه داخل المنازل؛ للاستفادة منها في الشرب والحياة اليومية،

في مقابل الحي التجاري لمدينة غرناطة تقوم قسبة أخرى، رتبَّ وعدل بناؤها، وأضيفت إليه مبانٍ جديدة أخرى؛ لتغطي وتلبي حاجات بني نصر وتستوعبهم بعد تأسيس وإرساء دعائم ملكهم.



كما اهتموا بحفر شبكة من الأنفاق والقنوات؛ لتصل مياه نهر حدرة لجزءٍ من السهل.

فالمجموعة الأولى من هذه الآثار تنتسب إلى السلطان يوسف الأول (733 - 755هـ)، وهو سابع سلاطين بني نصر في غرناطة والسلطان يوسف أبو الحجاج هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة، وقد شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء مؤسس المدرسة الناصرية بغرناطة.

وتشمل (باب الشريعة - الحمامات السلطانية - برج الأميرة - برج أبي الحجاج - القصر الملكي أو قاعة السفراء)

المجموعة الثانية: وتنسب إلى السلطان محمد الخامس الغني بالله، وتضمّ (بهو الأسود، والذي يضم قاعة الأختين وبني سراج المتقابلتين - قاعة الملوك - قاعة المقربصات - النافورة التي يحملها الأسود - أبواب الحمراء - وتجديد باب النبيذ).

كما يُنسب عدد من القصور لعددٍ مختلفٍ من السلاطين مثل قصر البرطل ومسجد الحمراء للسلطان محمد الثالث.

وينسب قصر العريف وبرج الأميرات للسلطان محمد الخامس. وجدير بالذكر أن معظم تسميات القصور الباقية لها طابع إسباني وحديثة العهد، حيث تمّت تسميتها بعد وفقاً لعدد من الأساطير والحكايات.

الأسوار الخارجية العالية لها ممشى للحرس، له دورة تعلوها الشرفات، ولا يخفى أن توزيع الأبراج في الأسوار غير متساوٍ؛ فهي مقامة عند مسافات مختلفة، وتتوسط المسافة بين برج وآخر قرابة خمسين متراً، ومثلما استعرضنا أنفاً أن لبعض الأبراج طبقات عالية، وهذه تشتمل على قاعات كبيرة، أهمها قاعة العرش أو قاعة السفراء (قمارش)، التي تشغل الطابق العلوي في برج مربع كبير. ولهذه القاعة ومثيلاتها نوافذ كبيرة تطلُّ على غرناطة وعلى البرج، وعند هذا النشز الرائع تنتهي جبال سييرا نيفادا ذات المناظر الخلابة، التي طالما تغنى بها شعراء غرناطة. إن هذا الموقع

الخلاط يجمع بين الجبال والوديان والسهول والأنهار والغابات، تتوسطه الهضبة التي ارتفعت عليها مباني الحمراء، ويبلغ طول الهضبة 470م وعرضها حوالي 220م، وقد بدأ العمل في تشييد قنطرة كبيرة لنقل المياه من الجبال المجاورة إلى الهضبة، حيث كانت المياه متوفرة في كل موضع في المدينة وفي قصور الحمراء.

والحمراء قبل كل شيء تُعدُّ حصناً استراتيجياً منيعاً؛ حيث إن هذا الحصن - ذا الأسوار والأبراج العالية التي تحيط بالحمراء - يُعدُّ من أقوى

**الحمراء قبل كل شيء تُعدُّ
حصناً استراتيجياً منيعاً؛
حيث إن هذا الحصن - ذا
الأسوار والأبراج العالية
التي تحيط بالحمراء - يُعدُّ
من أقوى وأنضج ما عرف
في فن العمارة الحربية؛
إنه يستحق العناية
والدراسة بشكلٍ خاص.**

وأنضج ما عرف في فن العمارة الحربية؛ إنه يستحق العناية والدراسة بشكلٍ خاص، أما الفناء الكبير - الذي تضمه الساحة في الداخل، والذي ينحدر على كلا الجانبين من الهضبة - فقد كان منقسماً إلى ثلاثة أجزاء: فالى الغرب يقع مجمع من التحصينات المترابطة المتماسكة؛ أي القسبة، وفي الجزء الأعلى تقوم مباني قصور الحمراء، وعلى السفوح المنحدرة للهضبة والتي تقع في الناحية الشرقية تقع مدينة غرناطة.

عند طرف التل المواجه (فيغا) تقع القسبة، وهي حصن منيع مستقل تماماً عن بقية أرجاء الحمراء، وقد اشتملت على مساحة كبيرة كأرض لتدريب الجند للاستعراضات العسكرية، وقد أُقيمت فيها بعض الدور الصغيرة بعد ذلك، ويحيط بهذه الساحة سور منيع مثلث الشكل، يشتمل على موانع وستائر من الجدران المرتفعة، تكتنفها الأبراج؛ حيث تدعمها ثلاثة أبراج شامخة ومقبأة، وإلى الشرق سور خارجي آخر، ولهذه القسبة بوابتها الكبرى المؤدية إلى الخارج، أما الأسوار المحيطة بقصور الحمراء كلها والتي تكملها القسبة طبعاً في الناحية الغربية فهي منيعة ومشيدة بالحجارة الصلبة، وتتألف من جدار واحد فقط، وإن هذه الأسوار شاهقة،



وتكتنفها الأبراج التي يبلغ عددها ثلاثة وعشرين برجاً كبيراً، يكون الطابق العلوي لمعظمها محتوياً على الردهات، وتُدرج فيما يلي أهم أبراج القسبة وأبوابها: باب الحراسة - باب السلاح - باب التكريم - البرج المهذوم - برج الدراق - باب الشريعة - باب النبيذ - باب المطرقة - بهو السفراء (قمارش) - برج السفراء - برج متزين الملكة - برج النساء - برج البرطل - برج القمم المسننة - برج الحديد - برج القنديل - برج الأسيرة - برج الأميرات - برج الماء - برج الطباق السبعة - برج الطليعة - برج الرؤوس.

إن معظم مباني الحمراء القائمة اليوم يرجع الفضل في إنشائها إلى السلطان أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل سابع ملوك العرب من بني نصر، ويعود الفضل إليه أيضاً في تشييد باب الشريعة المؤدي إلى الشارع ومنه نغبر إلى ساحة الجب (صهريج المياه)، وباب الشريعة بوابةً يتمثل فيها النمط المعماري العربي، ويرتفع قرابة خمسة عشر متراً يؤدي إلى وسط مباني الحمراء إلى الميدان الواقع بين القسم العسكري من مبانيها - أي الأبراج - والقسم المدني، والتي تتضمن الدور والحدائق ودوائر الدولة ومؤسساتها.

يدخل الزائرون اليوم إلى قصور الحمراء عن طريق ممرٍ يشبه المنزل يؤدي إلى دهليز قصير.

لقد شيّدت مباني الحمراء الأولى في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد خربت تلك القصور لتقوم محلها قصور الحمراء التي بناها بنو نصر بعدها، وهي الخالدة إلى يومنا هذا، والتي نتحدث عنها، فقد كانت هناك مجموعة من مباني الحمراء تقع في الناحية الغربية ودمرت منذ زمن، وقد كشفت التنقيبات الأثرية منذ سنوات عن أسسها، ويبدو منها فناء مربع تطل عليه عدة قاعات صغيرة، إلى جانبها مسجد صغير، وتتبع المسجد ساحة كبيرة، عُرفت بساحة المطرقة، تحدّه شمالاً سقيفة تؤدي إلى ردهة كبيرة تقع في أعلى أحد الأبراج المتصلة بالسور

المحيطة بالحمراء، تلك هي مجموعة المباني المندثرة. أما القصور الحالية فتتألف من مجموعتين أخريين شيّدت كل مجموعة حول مساحتين على محاور عمودية كبرى.

الفن والعمارة في غرناطة:

أسّس سلاطين غرناطة نوعاً مميّزاً من الفن أطلق عليه اسم «فن بني نصر»؛ نظراً لاسم مؤسس إمارة غرناطة، وسوف نتطرق له لاحقاً بعد

عرض نبذه سريعة عن الفن في الأندلس والتي كانت غرناطة جزءاً منه.

**في عصر ملوك الطوائف -
والتي نشأت بعد سقوط
الدولة الأموية، حيث عمل
كل أمير من أمراء الأندلس
على إنشاء دويلة منفصلة
وأصبح الحكم فيها له
ولذويه من بعده - في تلك
الفترة تطوّر الفن والعمارة
بشكل كبير، وبخاصة
الزخارف المختلفة، والتي
أصبحت السمة المميزة
لفن الأندلسي.**

• بدأ الطراز المعماري في الأندلس بالطراز الأموي، وذلك نسبة إلى مؤسس إمارة الأندلس «عبد الرحمن بن معاوية»، الذي نقل إلى الأندلس الطراز المعماري الأموي وما يتميز به من فخامة.

• أما في عصر ملوك الطوائف - والتي نشأت بعد سقوط الدولة الأموية، حيث عمل كل أمير من أمراء الأندلس على إنشاء دويلة منفصلة وأصبح الحكم فيها له ولذويه من بعده - في تلك الفترة تطوّر الفن والعمارة بشكل كبير، وبخاصة الزخارف المختلفة، والتي أصبحت السمة المميزة للفن الأندلسي.

• أما دولة المرابطين - وهي الدولة التي أقيمت على يد المغاربة لمحاربة المارقين على الإسلام، والذين حكموا الأندلس نتيجة للاستعانة بهم - فقد تميزت العمارة في عهدهم بالطابع العسكري؛ نظراً للحروب التي خاضوها للحفاظ على دولة الإسلام؛ حيث أكثروا من بناء الحصون والقللاع، وأضافوا ممرات منكسرة تعوق الحركة في حال إذا تمّ مهاجمة المكان.



• ثم جاءت دولة الموحدين - وهم جماعة من الأمازيغ المغاربة الذين حكموا المغرب والأندلس تحت لواء توحيد بلدان الإسلام - فلم تختلف العمارة في عهدهم عن سابقتها في عهد المرابطين؛ فقد تميزت أيضاً بالطابع العسكري؛ ولكنهم أكثرها من بناء القصاب المحصنة، وأضافوا الأسوار لحماية المدن، واختاروا بناء مدنٍ في أماكن مرتفعة.

طراز بني نصر مؤسسي إمارة غرناطة:

بعد سقوط عدد من الإمارات الإسلامية في يد الإسبان هاجر عدد كبير من المسلمين إلى غرناطة، ومن ضمنهم عدد كبير من العمال المهرة والصنّاع وأرباب الحرف، فنهضت العمارة وفنون الخزف، وسوف نتطرق لعدد من المنشآت المختلفة في إمارة غرناطة.

الخط العربي:

من خلال استعراض أهم آثار غرناطة نجد الخط العربي - سواء أبيات شعر أو آيات قرآنية - هو أهم ما يميّز الزخارف الإسلامية؛ حيث كان الخط العربي ملازماً للمد الإسلامي شرقاً وغرباً، حيث كان القرآن الكريم يلقن باللغة الأصلية، فانتشر الخط العربي، وساعد على ذلك علو مكانة الشخص الذي يتقن الكتابة بالعربية.

وصاحب انتشار الإسلام بالأندلس انتشار اللغة العربية وتجويد الكتابة باللغة العربية، وقد تطور الخط الأموي في الأندلس تطوراً كبيراً، حتى إن أهل الأندلس بسطوا الخط الكوفي بطريقة أطلق عليه الخط الأندلسي، ومن الجدير بالذكر أن النساء برعن في كتابة اللغة العربية والبلاغة، واشتهرن بها وذاعت شهرت العديد من نساء الطبقة العليا بحسن الخط وكتابة المصحف.

وأخذت الكتابات في الأندلس في التطور لتصبح ذات سمات مميزة؛ ففي عصر ملوك الطوائف ازداد التطور في حروف النقوش، كما ازداد

التوريق والتزهير الذي لحق بالحروف وأطرافها وبين الفراغات، وكان ذلك لبداية الزخرفة والتجويد في عصر بني نصر.

ولم يتفرد الفنان الأندلسي في الخط العربي فقط؛ ولكن أيضاً في المواد المستخدمة في الزخارف؛ فقد استخدم الفنان الغرناطي موادَّ مختلفةً مثل الخشب والرخام والجصّ، ومزجها في أشكال فنية متعددة، كما استخدم الفنان الأندلسي طريقة خاصة به عرفت باسم «نقش حديدة»، والتي يتمّ فيها النقش على المواد المصبوبة - مثل الجصّ بحديدة قبل أن تجف، كما استخدم أنواعاً مختلفة من الرخام ناصع البياض والخمري والوردي، الذي يوجد في أماكن كثيرة في بلاد الأندلس، كما كان يتنشر في غرناطة الرخام الموشى بالحمرة والصفرة.

صاحب انتشار الإسلام
بالأندلس انتشار اللغة
العربية وتجويد الكتابة
باللغة العربية، وقد
تطور الخط الأموي في
الأندلس تطوراً كبيراً،
حتى إن أهل الأندلس
بسطوا الخط الكوفي
بطريقة أطلق عليه
الخط الأندلسي.

كما كان لاستخدام الحجارة في البناء شأنٌ كبيرٌ؛ فقد استخدمت ببراعة في عمل القباب والمقرنصات، وكذلك الأخشاب التي تمت زخرفتها ببراعة من خلال النقش والترصيع والتعشيق، وكذلك الزليج أو القاشاني، وقد استخدم بشكلٍ رائع في الأثار الإسلامية بالأندلس وقد اشتهرت الأندلس بأنواع مختلفة من الزليج؛ مثل المزج بالذهب والفضة أو المفصص والمعروف بالموزاييك.

من سمات العمارة الإسلامية الواضحة في أبنية القصر استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى بعض المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، وتحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو الجدران، وبلاطات القيشاني الملون ذات النقوش الهندسية، التي تغطي



الأجزاء السفلى من الجدران. في سنة 2007، أُخْتِيرَ قصرُ الحمراء ضمن قائمة كنوز إسبانيا الاثني عشر، في استفتاءٍ صوّت فيه أكثر من تسعة آلاف شخص.

قائمة المراجع

- أحمد السماوي، رحلة إلى بلاد الأندلس، دار الفكر، دمشق، 1988.
- أنجل بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955.
- المقريري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء الرابع، بيروت، 2017.
- جمال محرز، بهو السباع في قصر الحمراء بغرناطة، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة.
- خير الله بك وأمين أسعد، تاريخ اليمارستان، بيروت، 1946.
- دكي جيمس، غرناطة مثال للمدن العربية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.
- سالم السيد عبد العزيز، العمارة الإسلامية في الأندلس، مجلة عالم الفكر، مجلد 8، الكويت، 1977.
- عبد الحكيم الذنون، أفاق غرناطة، دار المعرفة، دمشق، 1999.
- عبد العزيز الدولاتي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1977.
- عنان محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، القاهرة، 1977.

- محمد آمال شبانة، شواهد من الفن المعماري الأندلسي في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971.
- محمد توفيق، غرناطة وقصر الحمراء، المجلة التّاريخية المصرية، المجلد السادس عشر، 1969.
- مثنى فليفل وهمسة صالح، الخدمات العامة في مملكة غرناطة، مجلة الأستاذ، العدد 213، جامعة بغداد، 2015.
- محمد عبد المنعم الجمل، قصور الحمراء: ديوان العمارة والنقوش العربية، مكتبة الإسكندرية، 2004.

